الفصل الرابع عشر

الجغرافيا والعسكرية

إن تقسيم الحيز الجغرافي الى مراكز وأطراف يوجه التفكير نحو العديد من المعطيات البشرية، الاجتماعية، الاقتصادية، السياسة، ولربما المعطيات العسكرية كجزء من المعطيات السياسية. وكما اشار ماكندر الى الارض القلب فللحيز الجغرافي قيمة ستراتيجية عالية. يعرف هذه الحقيقة الروس جيداً ومنذ أيام نابليون والحرب العالمية الثانية. نعتمد أفكار ماكندر على الحرب البرية كلياً تقريباً، وقد جرت تعديلات عليها بدء بتقييم مانهان في نهاية القرن التاسع عشر للقوة البحرية، وهذه جرى تعديل عليها أيضاً، خاصة منذ عام ١٩٢٣ عندما أغرقت طائرات بارجة حربية إذ ظهر بعداً ثالثاً ونقطة تحول في اللعبة الستراتيجية، درس تم إستيعابه بعد الهجوم على ميناء بيرل هاربر في ١٩٤١/١٢/٤ وفقدان السفينة "أمير ويلز" بعد ثلاث أيام، وفي ثمانينات هذا القرن أوضحت حرب الفوكلند إمكانية وضع نظام هجومي منظور يعتمد الطائرات النفاثة والصواريخ عابرة القارات التي تطير فوق سطح الماء وبمستوى الأفق بما يحول دون كشفها. فعلى مستوى العالم بدأ البعد الثالث للستراتيجيات الحربية دورة في تهديد أي مكان ووضع كل إنسان في وجه هذه الطائرات والصواريخ، حسب تعبير الجغرافي وليام بونج William Bunge .

إن الجغرافيا بمعناها الواسع متضمنة في الستراتيجيات العسكرية، وذلك لأن التلويح بخطر الحرب يتطلب معرفة موقع الطرفين والحيز الفاصل بينهما. ،خلال القرون الثلاثة أو الاربع الماضية استخدمت الخرائط بكثافة في هذا المجال. وكلما كانت الخرائط دقيقة أدت الغرض بصورة أفضل. لذا ليس غريباً إشتراك القوات المسلحة في تنظيم وجمع المعلومات لإنتاج الخرائط والمصورات وعلى جميع المستويات. وحتى سنوات خلت كانت تحفظ هذه الخرائط في خزانات مغلقة. وبسبب تطور التصوير الجوي وإنتظار الأقمار الصناعية أصبح هذا غير ضرورياً لأن هذه توفر صوراً تفصيلية يومية لمعظم أرجاء الكرة الأرضية.

إن الخرائط قديمة نسبياً وتحتاج الى تحديث بينما تعطي الصور الجوية الواقع لحظة أخذ الصورة. وتقوم القوات المسلحة في معظم الدول الاوربية باخذ الصور الجوية وتحولها الى خرائط. ولا زال المصطلح المعتمد في هذه الخرائط هو Ordnance ومعناه القاموسي "مرمى البندقية أو المدفع". وفي نهاية القرن العشرين ستكون في معظم جيوش العالم وحدات بحثية تعني بالتحليل المكاني Terrain Analysis ودراسات عن التربة وقابليتها للتشبع عند مختلف الظروف الجوية وإنحدارها Slope وغيرها من معطيات تتعلق بحركة العجلات والآليات. وحتى يومنا هذا المتسم بالخوف من حرب نووية لا زالت الارض تعد عاملاً مهماً عند التهديد بالحرب لأنها توفر غطاء كلياً. يعرف هذه الحقيقة فيدل كاسترو وتشي جيفارا في كوبا وسعاة البريد في فيتنام، كما يعرفها الافغان منذ القرن الماضي وتجربة الإحتلال الإنكليزي ثم الروسي بدباباته ومدرعاته وطائراته وصواريخه. فالأرض تحافظ على أهميتها الخاصة في الدفاع، وإن المقاتل على أرضه لديه دائماً ما يرد به على نيران الاعداء.

توفر تقنيات الاستشعار عن بعد (الفصل ١٨) تغطية مباشرة لسطح الارض. وبالتأكيد قد وجهت البحوث لتطوير هذا الجانب مدفوعة بطموحات عسكرية. وفي الواقع، إن ما تقدمه أجهزة الإستخبارات العسكرية دقيق جداً لدرجة أن الأقمار الصناعية المخصصة للإستعمالات المدنية (Landsat I) عام ١٩٧٢ و Landsat 5 عام ١٩٨٣) قد اصبحت بالية قياساً بها. وتوفر تقنيات «أعرف-كيف Technical Know-How» فائدة جمة للإستخبارات العسكرية وللاستشعار عن بعد حساسية خاصة في هذا المضمار. قبل سنوات قليلة عقدت إحدى المنظمات المهنية في الولايات المتحدة مؤتمراً علمياً خاصاً بالجزء الشرقي وأرادت عرض صورة كبيرة مأخوذة بالاقمار الصناعية، فلم يسمح لها بذلك. توجه منظموا المؤتمر الى السفارة الروسية في واشنطن، وكان المسؤول فيها مسروراً لتوفير صورة كبيرة لذات المنطقة.

تحدث الحرب ونأخذ مكاناً لها على سطح الارض أو حولها وإن الارض في محطة الجغرافي وميدان دراسته، لذا الجغرافيا والجغرافيون متورطون ومعنيون بالحرب بطريقة أو بأخرى. كما إن خدمة الفرد لوطنه زمن الحرب بالخبرة المهنية واجب، والجغرافيون بامكانهم تقديم الكثير في المجال الاستخباري والتخطيط الستراتيجي. ففي خلال الحرب العالمية الثانية خدم العديد من الجغرافيين الأمريكان في مكتب الخدمات الستراتيجية OSS و المؤسسات التي عرفت لاحقاً بوكالة الإستخبارات المركزية CIA.

إن التلويح بالحرب على مستوى الكرة الأرضية، كما في الحرب العالمية، يتطلب في الغالب معلومات تفصيلية عن الطبيعة الجغرافية للمنطقة، وإن نسبة كبيرة من هذه المعلومات متوفرة على الخرائط أو تقدم بطريقة ما على الخرائط. إن معرفة طبيعة الارض والمصادر الستراتيجية والطريقة التي ينتظم بها إقليم المعركة المحتمل من طرق وإتصالات يعد أمراً حاسماً في النصر وتقليل الخسائر. كما ساهم الجغرافيون في دعم الجبهة الداخلية أثناء الحرب. ففي بريطانيا ساهم ددلي ستامب بمسح تفصيلي لإستعمالات الارض بهدف تقييم الإمكانات الزراعية لبلده، فكل طن من الطعام ينتج محلياً يحل مكان طن مستوردة. إنها مساهمة جادة في تعزيز القابليات الدفاعية في الأوقات الحرجة من تاريخ بلده.

ليس سهلاً أن يقدم الجغرافيون خبراتهم وخدماتهم زمن الحرب والأزمات وذلك لأن الظرف الطارىء نفسه قد يكون سبباً لبروز العديد من الظواهر. وقد يجمع البعض بين الخلفية الجغرافية والمهنة العسكرية ولكنهم قد يلغو دور بعض المشاكل البشرية العميقة التي تقع في صلب العديد من التناقضات والتعارضات السياسية. وقد قام أحد المعرافيين العسكريين باستطلاع آراء عدد من الضباط من مختلف شعوب العالم واستخلص تصورهم وإدراكهم للجغرافيا والصداقة، التهديد، الحجم، الموقع، التعرضات الستراتيجية وأسس القوة. وعلى سبيل المثال، كان تصور الضباط الفنيزوليين للخطر حسب أساسه ومصدره راجع الى الاتحاد السوفيتي (سابقاً) ثم كوبا، وجارتهم غينيا على الرغم من صغر مساحتها. باختصار، إن خبرة الجغرافيين المحدثين قد حملت بالصورة الذهنية التي يحملها العسكريون عن التعارضات المحتملة. مثل هذه التصورات في جزء من مشكلة إدراك الخطر والمشاكل التي تجعلنا جميعاً أكثر حساسية وإدراكا لدور هذه الصور في القرارات الستراتيجية الحاسمة.

إن اشتغال الجغرافيين بالإستخبارات العسكرية والتخطيط الستراتيجي والبحوث ذات الصلة سلاح ذو حدين، وأحد السيوف الثلاث في هذا الباب من الكتاب. في الواقع، إن أية معرفة يمكن استخدامها للصالح أو للطالح، ثم إن إنخراط الجغرافيين بالخدمة العسكرية أدى الى تزايد استعاب أهمية الخبرة الجغرافية فير المجال العسكري. وخلال عقد السبعينات ارتفعت أصوات عديدة في اجتماع مهني تعبر عن مخاوفها من هذا المنحى. ويعود جزء من هذه المخاوف الى تحذير الرئيس آيزنهاور في خطبته الأخيرة من استمرار تقدم الصناعة العسكرية وإزدهارها. واليوم تصرف بلايين الدولارات سنوياً على الأسلحة، وقد وثقت هذه الحقيقة في معهد بحوث السلام الدولي في ستوكهولم في السويد. تعني هذه

الكمية الهائلة من الأموال أن الارباح الطائلة تذهب الى مصانع الدول المنتجة للسلاح وإن إغراءات الربح لا تقاوم. إضافة الى هذا، القليل من المقالات الجغرافية بحثت في أثر التسليح على التنمية الإقليمية، حيث إن الصرف على الجيوش والمتطلبات العسكرية المختلفة يعني توجيه الاموال الى اماكن معينة.

تعود المعارضة في اشتغال الجغرافيين في هذا الميدان الى ما يمكن أن تجنيه الجغرافيا كعلم من هذا الارتباط. فهناك معارضة شديدة وليس هناك منظمة مهنية واحدة لها صلة حتى ولو بسيطة بالعسكرية، والتوجه لرفض أي دعم مالي للبحوث من أي مصدر عسكري. وقد كانت بعض الأصوات والكتابات حادة جداً في هذا الخصوص. وفي فرنسا صدر كتاب للجغرافي Yves Lacoste شن فيه هجوماً خفيفاً على التقدم التقني وسياسات الحكومة والمخططين الحضريين والإقليمين والتشوه الفكري الذي اصاب الجغرافيا نتيجة الثورة الكمية والإنحراف الذي حصل بسبب مساهمة الجغرافيين في الشؤون العسكرية، وعلى كل شيء. وفي كل هجمة قام بها الكاتب هناك حقيقة. وبالجانب الآخر من النهر الأطلنطي، طور وليام بونج أفكاره باتجاه العدالة الاجتماعية والرعب من حرب نووية مستخدماً نفس الهجوم لجلب إنتباه العالم الإنساني والمهني الى هذه المشكلة.

ليس هناك شك في أن هذا الموضوع سلاح ذو حدين، وليس صحيحاً وصف الجغرافيا بعلم هدفه الرئيسي الترويج للحروب والتلويح بها. إن إدانة الجغرافيا لمجرد إشتغال بعض الجغرافيين بالاستخبارات العسكرية يشابه إدانة الرياضيات لأن العديد من البحوث السرية والعمليات الاستخبارية تعتمدها في التحليل. فهل هدف الرياضيات شن الحروب؟ تعارض الآراء موجود، ويجب أن يترك للمجتمع والقرارات الفردية. لقد عبر الطرفان عن اهتمامهم وكلاهما يدرك مخاطر الإنغماس بعمق في هذا الميدان.

إن ميزانية البحوث في المصادر العسكرية مغرية خاصة وإن الاكاديميين، كما هم المدرسين عادة، ذوي رواتب قليلة نسبياً. وإن ميزانية البحوث من أي مصدر تشكل فوائد و مخاطر في وقت واحد. النقود قوة، وجميع القوى تؤدي الى التخريب، الخوف من ممارسة التأثير وتوجيه البحوث الجغرافية باتجاهات معنية، ويأتي هنا التساؤل عن إدارة وتنظيم البحوث الجغرافية كحالة مكملة للجغرافيا الحديثة، وهذا هو موضوع الفصل التالي.